﴿وَيَصۡنَعُ ٱلۡفُلۡكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيۡهِ مَلَأٞ مِّن قَوۡمِهِۦ سَخِرُواْ مِنۡهُۚ قَالَ إِن تَسۡخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسۡخَرُ مِنكُمۡ كَمَا تَسۡخَرُونَ ٣٨﴾ [هود: 38]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الاستجابةُ النَّبويَّةُ للأمرِ الإلهيِّ سرُّ النَّجاةِ ومبدأُ الفلاحِ

المُناسبة بين هذه الآية والتي قبلها جليَّةٌ واضحة، وهي أنَّ الله ﷻ لمّا أمر نبيَّه نوحًا عليه السلام بصُنع الفُلك في قوله: ﴿وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا﴾ [هود: 37]؛ أخبر هُنا أنَّه امتثل ذلك بقوله: ﴿وَيَصۡنَعُ ٱلۡفُلۡكَ﴾[1]، ففي هذه الآية بيانٌ لامتثال نوحٍ لأمر ربِّه ﷻ[2]، فهي مناسبةٌ لبيان ترتُّب الاستجابةِ النَّبويَّة على الأمر الإلهيِّ دون توانٍ أو تردُّدٍ، بل مسارعة ومسابقة.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَيَصۡنَعُ﴾: من الجذر اللغوي (صنع)، وهو أصلٌ صحيح يدلُّ على عملِ الشيء صُنعًا، تقول: امرأة صَناعٌ، ورجل صَنَعٌ؛ إذا كانا حاذِقَين فيما يصنعانه[3]، فهو العمل الذي ينتهي بتشكيل هيئةٍ جديدة وتحصيلها بإحكام[4]، فالصُّنع: إجادة الفعل[5]، يُقال: صنَعْتُ الشَّيءَ أصنَعُه صُنْعًا[6]، والصُّنّاع: الذين يعملون بأيديهم[7]، ومعنى ﴿وَيَصۡنَعُ﴾ في الآية: يبني، وينحتُ، ويُشَكِّلُ غايةً في الإتقان والإحكام[8].

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 9/283.
(2) البغوي، معالم التَّنزيل: 2/447، وطنطاوي، التَّفسير الوسيط: 7/202.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صنع).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (صنع).
(5) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (صنع).
(6) ابن دريد، جمهرة اللُّغة: (صنع).
(7) الخليل، العين: (صنع).
(8) السمرقندي، بحر العلوم: 2/149، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (صنع).

2) ﴿ٱلْفُلْكَ﴾: السَّفينة: والفاءُ واللّامُ والكافُ تدور تصاريفُها عَلى اسْتِدارَةٍ في شَيْءٍ، والفَلَكُ: قِطَعٌ من الأرْض تستديرُ، وترتفع عَمّا حولها[1]، وفَلَكُ كُلِّ شَيْءٍ: مُسْتدارهُ ومُعْظمه[2]؛ ومنه سمِّيت السَّفينَةُ فُلْكًا؛ لِأنَّها تُدارُ في الماءِ[3].

3) ﴿مَرَّ﴾: أصل مرَّ يدلُّ على مُضيِّ شَيءٍ، ومَرُّ السَّحابِ: انْسِحابُهُ ومُضيُّهُ[4]، يُقال: مَرَّ يَمُرُّ مَرًّا ومُرورًا: جازَ، وذَهَبَ، ومَرَّ بهِ، ومَرَّه: جازَ عَلَيْهِ[5]، فالمرورُ: هو المُضيُّ والاجتياز بالشَّيء دون توقُّفٍ، ويُقال لما هو خِلافُ الحلاوة والطّيب: المُرُّ، فمرارة الشَّيء تمنع النّاس من المكث فيه، فسُمّي الأمَرّ؛ لأنَّه غيرُ طيّب، ثمَّ سمِّيت بعد ذلك كلُّ شدَّة وشديدة بهذا البناء، يقولون: أمررتُ الحبلَ: فتلتُه، وهو مُمَرٌّ، والمَرُّ: شدَّةُ الفَتْل، والمَرير: الحبل المفتول[6]. وقد استُعمل المرور في القرآن فيما كان اجتيازًا سريعًا دون توقُّف، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُواْ مِنْهُ﴾، وقد استعمل القرآن ما كان لجزء يسير من الزَّمان مرَّةً، ومرَّتين، قال تعالى: ﴿لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ﴾ [الإسراء: 5]، استبشارًا بسرعة الزَّوال.

4) ﴿مَلَأٌ﴾: أصل ملأ يدلُّ على الكمال في الشَّيْءِ[7]، والملأ: الأشْرافُ والرُّؤساء منَ النّاسِ، وهو اسْمُ الجَماعَةِ، كالقَوْم والرَّهْطِ والجَيْشِ، وجَمْعُهُ أمْلاءٌ، وأصْلُها: منَ المَلْءِ، وهُمُ الَّذينَ يَمْلَؤونَ العُيونَ هَيْبَةً ورِواءً، وقيلَ: هُمُ الَّذينَ يَمْلَؤونَ المَكانَ؛ إذا حَضَروا، والرُّؤَساءُ سُمّوا بِذَلِكَ؛ لِأنَّهم يَمْلَؤونَ القُلوبَ بِما يُحْتاجُ إلَيْهِ من قَوْلِهِمْ: مَلأ الرَّجُلُ يَمْلأُ ملْأةً، فَهو مَليء[8].

5) ﴿سَخِرُواْ﴾: السُّخرية: تَعَجُّبٌ مَشوبٌ باحْتِقارِ الحالِ المُتَعَجَّبِ منْها، فيدلُّ على احتقار واستذلال، ومن الباب: سَخِرتُ منه، إذا هزِئتُ به، وسَخِرْتُ بِهِ، واسْتَسخرتُه للهزْءِ منه،

(1) الأزهري، تهذيب اللُّغة: 10/142.
(2) ابن منظور، لسان العرب: (فلك).
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (فلك).
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (مرّ).
(5) ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم: 10/247، وابن منظور، لسان العرب: 5/165.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (مرّ).
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: 5/346.
(8) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 6/168، وابن الأنباريّ، الزّاهر في معاني كلمات النّاس: 2/161.

أصل (سخر): انقيادٌ بيُسرٍ مع عدم مقاومةٍ، ومن الانقيادِ مع عدم المقاومة، وهو خفَّةُ حالٍ وقَدْر، قالوا: "سَخِر منه سِخْريًّا وسُخْريًّا: هَزِئَ"، وهذا يعبِّر عنِ الاستخفافِ وعدم التَّقدير[1].

وقد وردت مشتقّات الجذر (سَخِرَ) في هذه الآية أربع مرّات، وتُطلق السُّخرية على ثلاثةِ معانٍ، وهي: الهُزْءُ بالشَّخص، والمجازاة جزاءَ السُّخرية[2]، والعمل بدون أجر، والمعنى الأخير غير مُراد هُنا في هذا الموضع؛ قال الزَّمخشري "فلان سُخْرةٌ: يضحك منه النّاس، ويضحك منهم، وسَخِرْتُ منه واستسخرت، واتَّخذوه سخريًّا، وهو مَسخرة من المساخر، وتقول: رُبَّ مَساخِرَ يَعُدُّها النّاس مفاخر، وسخَّره الله لك، وهؤلاء سُخرة للسُّلطان يتسخَّرهم: يستعملهم بغير أجر"[3].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

تُبيِّن الآية حالَ نوحٍ ﷺ حين أمره الله تعالى بصناعةِ الفُلك بعيدًا عن البحر، فامتثل أمرَ ربِّه، وشرع في صناعةِ السَّفينة دون توانٍ أو تباطؤٍ، وتُصوِّر الآيةُ حالَ الملأ الذين اعتادوا المرورَ عليه لإبداءِ السُّخرية المضمَّنةِ بالعَجب؛ فهو يقومُ بصناعةِ أمرٍ لا فائدةَ منه في نظرِهم، وهو ما جعل عجَبَهم القاصرَ المضمر في نفوسهم سخريةً ظاهرةً مكرورةً عند المرورِ به، فكان جوابُه مناسبًا لسخريتِهم مساويًا لهزئهم؛ بأن توعَّدهم السُّخرية الحقيقيَّة عند مجيءِ الوعدِ الصّادق في المستقبل القريبِ، وهو غرق السّاخرِ اليوم الذي سيُسخر منه غدًا، ونجاة المسخور منه اليوم الذي سيَسخر غدًا، فالآيةُ أصلٌ في الثِّقةِ بالله تعالى، والصَّبر على أمرِه إلى حين لقائه.

الثِّقةُ بالله تعالى في الأمرِ كلِّه عمادُها الإيمانُ ووقودُها الصَّبر

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، والسَّمين الحلبيُّ، عمدة الحفّاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (سخر)، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/296.

(2) ابن الحداد، كتاب الأفعال: 3/547.

(3) الزَّمخشري، أساس البلاغة: 1/443.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ الواو في ﴿وَيَصۡنَعُ﴾:

الامتثالُ للأمرِ الإلهيِّ استسلامٌ وخضوعٌ موازٍ للسُّجود والرُّكوع

الواو في قولِه تعالى: ﴿وَيَصۡنَعُ ٱلۡفُلۡكَ﴾: إمّا أنَّها عطفٌ على جملة ﴿وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ﴾ [هود: 37]، أي: أوحيَ إليه: اصنع الفلك، وصنعَ الفلك[1]، وإمّا أنَّها استئنافيَّةٌ بذاتِها، أو استئنافيَّة باعتبارِها معطوفةً على محذوفٍ مُستأنف، فتأخذ حكمَه، أي: يتهيَّأ للصُّنع بعد أمرنا له به، ويصنع[2].

وعلى كلا التَّقديرَيْنِ فهذه الجُملة تُبَيِّن استجابة نبيِّ اللّه نوح ﷺ وامتثاله لأمر رَبِّه؛ فلمّا أمره تعالى؛ أخبر أنَّه امتثل ذلك بقوله عاطفًا على ما تقديره: فأيس من إيمان أحد منهم، فترك دعاءهم، وشرع يسلّي نَفْسه، وطفق يصنع الفلك[3].

سرُّ التَّعبيرِ بالمضارع ﴿وَيَصۡنَعُ﴾:

استحضار صورة الصُّنع العجيبة التي لم يُعهد مثلُها حكايةٌ للحال الماضية

جاء التَّعبير بالفعل المضارع مع أنَّ الصُّنع كان في الماضي؛ استحضارًا لصورة الصُّنع العجيبة التي لم يُعهد مثلها، فهي حكايةٌ للحال الماضية، كأنَّها حاضرة يُشاهدها سيِّدنا محمَّد ﷺ وغيره، حال كونِ نوحٍ ﷺ يصنعها[4].

والتَّقدير: فشرع يصنع، فحُكيت حال الاستقبال[5]، أي: يصنع الفلك الآن، ويدلُّ على أنَّ الصُّنع بدأ منذ حينٍ وأنَّه مستمرٌّ، وفيه ملاءمةٌ للاستمرار المفهوم من الجملة الواقعة حالًا ﴿وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيۡهِ مَلَأٞ مِّن قَوۡمِهِۦ سَخِرُواْ مِنۡهُۚ﴾ من ضميره[6]، أي: حالَ استمرار العمل،

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/67.
(2) أطفيش، تيسير التَّفسير: 6/389.
(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 9/283، وطنطاوي، التَّفسير الوسيط: 7/202.
(4) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 10/76، وطنطاوي، التَّفسير الوسيط: 7/202، وأطفيش، تيسير التَّفسير: 6/389.
(5) الثَّعالبي، الجواهر الحسان: 3/282.
(6) أبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 4/206.

وليس بداية العمل، فهي نقلٌ للمُخاطَب إلى المشهد، ونوحٌ مُنهمكٌ في العمل، لتخييل السّامع أنَّ نوحًا ﷺ بصدد العمل، كقوله: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا﴾ [فاطر: 9]، وقوله: ﴿يُجَٰدِلُنَا فِي قَوۡمِ لُوطٍ ٧٤﴾ [هود: 74][1].

نكتةُ اختيارِ لفظ الصُّنع: ﴿وَيَصۡنَعُ﴾:

رسوخ الصَّنعة والتَّمكُّن فيها عنايةٌ إلهيَّةٌ ورعايةٌ ربّانيّة

الصُّنْعُ: تَرْتيبُ العَمَلِ وإحْكامُهُ على ما تَقَدَّمَ عِلْمٌ به، وبما يوصِلُ إلى المُراد منه، ولذا قيل للعِلْم المُتَعَلِّق بكيفيَّة العمل: صناعةٌ[2]، ويَدُلُّ على رسوخ العَمَلِ وإجادَتِه، فَيُقالُ للنَّجّار: صانِعٌ؛ لأنَّ النَّجار قد سَبَقَ عِلْمُهُ بما يُريدُ عَمَلَهُ، وعَلِمَ بالأسبابِ التي توصِلُ إلى المُرادِ من ذلك؛ فالصُّنْعُ أخَصُّ من غيرِه، وقد وصفَ نوحٌ ﷺ بهذا الوصف، فدلَّ على الرُّسوخ والتَّمكُّن في الصُّنع، فقد أحكم نوحٌ صَنْعَةَ السَّفينة، وأجادها حتَّى قارعت أمواجًا عظيمةً، وصفَها الله تعالى بأنَّها في عِظَمها وحجمها كالجبال، فقال: ﴿وَهِيَ تَجۡرِي بِهِمۡ فِي مَوۡجٖ كَٱلۡجِبَالِ﴾.

وفي أمرِ الله تعالى بصنعِ السَّفينةِ، والتَّعبير عن بناءِ السَّفينةِ بالصُّنعِ؛ إشارةٌ سرمديَّة إلى أنَّ نوحًا ﷺ سيُتقن الأمرَ، فعبَّر عمّا سيكون، وأخبر بما هو كائنٌ، ترسيخًا للمعاني الثّابتة، وإلهابًا للنُّفوسِ الآمنة، أنَّها ستزداد إيمانًا في مركبٍ صُنِعَ بأمرِ الله تعالى، وبقوَّة الله كان، وبرحمته استقرَّ وجال.

ولا شَكَّ أنَّ سفينة نوح لم تكن سفينة عاديَّة، ولم تنتهِ بسهولة مع وسائل ذلك الزمان وآلاته؛ إذ كانت سفينة كبيرة تحمل بالإضافة إلى المؤمنين الصّادقين زوجين اثنين من كلِّ نوع من الحيوانات، وتحمل متاعًا وطعامًا كثيرًا يكفي للمدَّة التي يعيشها المؤمنون والحيوانات في السَّفينة حال الطّوفان، ومثل هذه السَّفينة بهذا

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/67.
(2) الشّريف الجرجانيّ، التّعريفات، ص: 134، والتّهانويّ، كشّاف اصطلاحات الفنون: 2/1097.

الحجم وقدرة الاستيعاب، لم يسبق لها مثيل في ذلك الزَّمان بل حتَّى في هذه الأزمنة ممّا يَدُلُّ على إحكام صُنعها، وتمكُّن صانعها من تلك الصَّنعة العجيبة، وعليه فذِكْرُ لفظ الصُّنع هو الأنسب بالسّياق والمقام، فالسّياق هو حديث عن أعجوبةٍ، ولفظ الصُّنع هو الأليق بها، والمقام حديثٌ عن سفينة، ولفظُ الصُّنع هو الملائم لها؛ لأنَّ السَّفينة لا تُفعل، ولا تُعمل؛ بل تُصنع.

سرُّ إضمارِ المسندِ إليه في ﴿وَيَصْنَعُ﴾:

شُهرةُ نوحٍ عليه السلام بصنع الفلك أغنى من أن تُذكر

لم يُظهرِ النَّظمُ الكريم المُسند إليه ﴿نُوحٍ﴾ هُنا، فأتى به مُضمرًا لكونه معلومًا معيَّنًا، في قوله تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾ [هود: 36]، فمقتضى الحالِ الإضمارُ؛ لأنَّ سياق المقطع في قصَّته، وسياقُها صرَّح به، والذي صنع الفُلك هو لا سِواه عليه السلام، فشُهرةُ أمره أعلى من ذكرِه، ومن كان كذلك؛ كان إضمارُ اسمه أولى من إظهارِ حرفِه ورسمه.

دلالةُ الواوِ في: ﴿وَكُلَّمَا﴾:

شأنُ قادةِ الكفرِ تثبيطُ الهمم وزعزعةُ القِمم

الواوُ في قولِه تعالى: ﴿وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ﴾ حاليَّة، ومعنى الكلام: يصنع الفُلكَ، وحاله في وقتِ صناعةِ الفلك مع قومه: أنَّه كلَّما مَرَّ ملأٌ؛ سخروا منه، فالحال تُبيّن صعوبةَ الصُّنعِ مع سخريةِ القوم، فهو فوق أنَّه منهمكٌ في صناعةِ الفلك، لمعرفتِه بغاية الصُّنعِ؛ يمرّون أولئك فيسخرون، ومن صور السُّخرية التي قالها المفسِّرون: إنَّهم كانوا يقولون له: صرتَ نجارًا بعد أن كنتَ نبيًّا[1]، فأشار بقوله تعالى: ﴿وَكُلَّمَا﴾ إلى أنَّهم ازدادوا بَغْيًا، فسخروا منه[2].

سرُّ التَّعبير بتركيب (كلَّما):

في قوله تعالى: ﴿وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ﴾، جاءت كلمة (كلّما) وهي

(1) الصّاوي، حاشية الصّاوي على الجلالين: 2/135.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 9/284، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/68.

مُركَّبة من (كُلَّ) و (ما) الظَّرفية المصدريَّة الوقتيَّة، وانتصبت (كلّ) على الظرفيَّة؛ لأنَّها اكتسبت الظرفيَّة بالإضافة إلى الظَّرف، وهو متعلِّقٌ بـ ﴿سَخِرُواْ﴾، وهو جوابه من جهة أخرى، والمعنى: وسخر منه ملأ من قومه في كلِّ زمنٍ مرورهم عليه[1].

السُّخرية هي المرامُ والغايةُ، والمرورُ هو الأداةُ والوسيلة

فتركيب ﴿وَكُلَّمَا﴾: ظرفُ زمانٍ مُتضمِّنٌ معنى الشَّرط، متعلِّقٌ بقوله: ﴿سَخِرُواْ﴾[2]، فهذا الظَّرف يَدُلُّ على تَكَرُّر فعل السُّخرية منهم في كُلِّ وقتٍ يمرّون عليه فيه، ونكتةُ التَّعبير به دون أن يقول: (وسخروا منه عند مرورهم)، ونحوِه؛ لبيانِ أنَّه ما خلا مرورٌ من سخريةٍ واستهزاءٍ؛ ففيه إشارةٌ إلى أنَّهم يمرّون لأجلِ السُّخرية لا لأجل المرور، فالسُّخرية غايتُهم، والمرورُ وسيلتهم، وبه يتبيَّن مدى حقدِ القوم وحسدِهم وعداوتِهم لنوحٍ عليه السلام ومن معه من المؤمنين، فلا تجزعْ على غرقِهم، بل افرح بتطهير الأرض من دنسهم.

نكتةُ استعمالِ المرور في ﴿مَرَّ﴾:

قومُ نوحٍ عليه السلام جمعوا في موقفِهم منه بين الخَبْطِ الشُّعوريِّ والحسد

استعمل النَّظم القرآنيُّ مفردةَ المرور ﴿مَرَّ﴾ في قوله تعالى: ﴿مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ﴾، دون أن يقول: (وكلَّما أتوه) ونحو ذلك، لبيانِ أنَّ مرورهم كان مَرًّا سريعًا، فإنَّ مفردةَ المرور تدلُّ على الاجتيازِ السَّريع، وتتضمَّنُ في أثناء دلالاتها المعجميَّة مرارة المعنى، ويُؤكِّد ذلك أو ينفيه استعمال السّياق، والسُّرعةُ دليلُ الحسد والحقد، فإذا تكرَّر؛ دلَّ على الخَبْطِ الشعوريِّ، فهم يمرّون مسرعين، ولا يرغبون بأن يُشعَر بأنَّ مرورهم كان للاطِّلاعِ، فيوارون هذا المقصد بالسُّرعةِ، لكنَّ تَكرارَ المرور كاشفٌ، أنَّى لهم بدفعِه؟

دلالةُ الحرف (على):

في قوله تعالى: ﴿وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ﴾ تدلُّ (على) على أنَّ سيِّدنا

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/68.
(2) القنوجي، فتح البيان: 3/312.

تصويرُ المشهدِ التّاريخيِّ في مرورِ الملأ قصدًا لا وفاقًا

نوحًا عليه السلام لا يَصْنَعُ الفُلك في طريق المارَّة، وإنَّما في مكانٍ متنحٍّ منخفضٍ، ولذلك لم يقل: (وكلما مروا به)، كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ۝٣٠﴾ [المطفّفين: 30]، فحرف (على) استُعمل للاستعلاء الحقيقي، وهذا ما يقتضيه الظّاهر ما لم يرد مانعٌ من ذلك، فهم يمرّون آتين من مكانٍ مرتفعٍ، وهو مُتَنَحٍّ عنهم في مكانٍ منخفضٍ، فهو ليس في طريقِهم، وهذا ما يُؤكِّد أنَّهم قصدوا المرور، لا أنَّه جاءَ لِمامًا، وهي إشارةٌ من النَّظم، تُصوِّر المشهد التّاريخيَّ، لاستحضارِ الصّورةِ، واستجلاءِ الحقيقة.

فائدة استعمالِ: ﴿مَلَأٌ﴾:

في الأوقاتِ العصيبةِ يتولّى الملأ الأعمال الميدانيَّة

جاءَ استعمالُ لفظةِ ﴿مَلَأٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ﴾، دون أن يقولَ: (جماعةٌ، أو طائفةٌ، أو فرقةٌ) ونحو ذلك؛ لبيانِ أنَّ الغيظَ والحسدَ والانشغال قد أصاب الملأ، وهم أشراف القوم وكبراؤهم[1]، الذين استحقّوا هذا الوصْفَ وهُم الذين يملؤون صدور المَجالس، وتمتلئ القلوب من هَيْبَتِهم، وتمتلئُ الأبصارُ من رُؤيتهم، وهذه الصِّفاتُ لا تحصل إلّا في الرُّؤساءِ[2]، فهم الذين يعادون نوحًا عليه السلام على الحقيقةِ، وهم الذين يُحرِّكون الجماهير التَّعيسة من قوم نوحٍ عليه السلام، وهم الذين يمرّون بأنفسهم دون أن يوكلوا ذلك لآحادِ النّاس، ففيه إشارةٌ إلى أنَّهم أصحابُ فضولٍ كبيرٍ، وتراودهم أفكارٌ ومشاعر، كتلك التي راودت قريشًا عند سماعِ القرآنِ، فتناقضت مشاعرُهم بين الرَّغبةِ في المشاهدة، والمقاومة لتلك الرَّغبة، فأبرز النَّظمُ تلك التَّصرفات الرَّعناء، والأفعال الحمقاء، بألفاظٍ دلَّت على المراد، وكشفت عن المقصود.

(1) عبد الكريم الخطيب، التَّفسير القرآني للقرآن: 6/1139، ووهبة الزُّحيلي، التَّفسير المنير: 12/68.
(2) ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 9/179.

الغرضُ من تنكيرِ: ﴿مَلَأٌ﴾:

أشارتِ الآيةُ بتنكير لفظة ﴿مَلَأٌ﴾ دون تعريفِها إلى أنَّ الذين كانوا يتحرَّكون هم جزءٌ من الملأِ لا جميعهم، ففيه أنَّهم كانوا يقومون بجولاتٍ تفقديَّة، وينقسمون إلى فِرَقٍ، كلُّ فرقةٍ تقوم بدورِها الفاحص حول ما يقوم به نوحٌ عليه السلام، ولو قال: (الملأ)؛ لفُهِمَ أنَّ المرادَ بالملأِ هنا: جميعُهم، والنَّظم أفاد أنَّ الذين يمرُّون هم بعضُ الملأِ، وهذه إشارةٌ إلى أنَّهم كانوا منتظمين على المرور، متناوبين في الأعمال، لسانُ أفعالِهم كلسانِ قولِ المشركين: ﴿وَٱنطَلَقَ ٱلۡمَلَأُ مِنۡهُمۡ أَنِ ٱمۡشُواْ وَٱصۡبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمۡۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٞ يُرَادُ ۝٦﴾ [ص: 6].

الملأُ يتقاسمون الأدوارَ، ويتناوبون فيما بينهم خوفًا باعثُه الجهل من القادم

دلالةُ ﴿مِّن﴾:

حرف ﴿مِّن﴾ في قوله تعالى: ﴿مِن قَوۡمِهِۦ﴾ معناه التَّبعيض[1]، فالملأُ هم بعضُ القوم، وهم قادتهم الذين تصدّوا لمجادلة نوح والمُناضلة عن دينهم، فإنَّ قوم نوح، وإن كان أكثرهم قد كفر بدعوته ورسالته، وما آمن لنوحٍ إلّا قِلَّةٌ قليلةٌ منهم، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٞ﴾؛ إلّا أنَّ الذين تَصَدّوا لمجادلته هم الرُّؤساء والأشراف الأغنياء المتبوعون الذين قد جرت العادة باستكبارهم على الحقِّ، ومجادلتهم لرسلهم[2]، فالملأُ هم من قوم نوحٍ عليه السلام الذين ينطقون عن عامَّةِ النّاسِ، وعامَّةُ النّاس يوافقونَهم في العادةِ.

المتصدّون لعداوةِ الحقِّ هم رؤساءُ القوم لا رعاعُهم، والأسيادُ لا الأسياف

سرُّ الإضافةِ في ﴿قَوۡمِهِۦ﴾:

أُضيف لفظ (القوم) في قولِه تعالى: ﴿مِن قَوۡمِهِۦ﴾ إلى الضَّميرِ العائدِ على نوحٍ عليه السلام؛ لبيانِ أنَّهم يعرفونه، ويعرفون صدقَه وحسنَ سيرته، فكان حريًّا بهم تصديقه واتِّباعه، وأنَّهم القوم أنفسهم الذين خاطبهم، ودعاهم مرارًا، وعايشهم سنين طويلة، فهم من

إعراضُ قوم الدّاعي عن الإيمانِ حسرةٌ عظيمةٌ ولهفةٌ جسيمةٌ

(1) ابن عادل، اللُّباب في علوم الكتاب: 9/179.

(2) السَّعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 293.

قومه لا من قومٍ آخرين، فالحديث عن ملأٍ من قومه، ممّا يزيد من أسى نوحٍ عليه السلام من عدم إيمانِهم وسخريتِهم وعنادِهم؛ فإنَّ المؤمنَ عظيمُ الأخلاقِ، تزدادُ شفقتُهُ ورحمتُهُ بقومه الذين كابد في سبيل هدايتِهم، وفي طريق يقظتهم.

توجيهُ جوابِ الشَّرطِ:

لتعيينِ جواب ﴿وَكُلَّمَا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُواْ مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ احتمالان:

سـخـريـةُ المـلأِ ثابتةٌ في كلِّ زمان والـرَّدُّ عليها بما يوافقُ كلَّ مقام

الأوَّل: أن يكون الجوابُ قولَه تعالى: ﴿سَخِرُواْ مِنْهُ﴾، فيكون المعنى: كُلَّما مَرَّ الملأ عليه؛ سخروا، فالسُّخرية مستمرة عند كلِّ مُرور، وتكون جملة ﴿قَالَ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا﴾ استئنافيةً[1]، وتكون الجملة بالشَّرطِ وجوابه كاملةً بقولِه تعالى: ﴿وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُواْ مِنْهُ﴾، وحينها لا يدلُّ على أنَّ الإجابة ﴿قَالَ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا﴾ كانت في كلِّ مرَّة يسخر الملأ فيها من نوحٍ عليه السلام، وإنَّما سخريتهم هي التي كانت في كلِّ مرَّةٍ.

الآخر: أن يكون جواب ﴿وَكُلَّمَا﴾ قولَه تعالى: ﴿قَالَ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا﴾، وجملة ﴿سَخِرُواْ مِنْهُ﴾ صفة للملأ[2]، فيكون المعنى: (كُلَّما مَرَّ عليه ملأ ساخر؛ قال: إنْ تسخروا منّا)، فهو لا يترك ملأً ساخرًا إلّا رَدَّ عليه، وكلَّما سخر ملأٌ؛ أجابه نوح عليه السلام بقوله: ﴿إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا﴾، أي: إنَّ الإجابةَ والرَّدَّ كان في كلِّ سخريةٍ صادرةٍ عن الملأِ المارِّ بنوحٍ عليه السلام[3].

والاحتمالُ الأوَّل أقربُ إلى القبول؛ لما فيه من سلاسةِ التَّوجيه،

(1) أبو حيّان، النَّهر المادُّ: 2/66، والقنوجي، فتح البيان: 3/312.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/149، والنيسابوري، تفسير غرائب القرآن: 4/20.
(3) الزَّمخشري، الكشّاف: 2/394، والآلوسي، روح المعاني: 6/248.

واتساق المعاني، وهو ما يتوافق مع طبيعةِ تعامل الأنبياءِ مع أقوامهم، فإنَّ الصَّواب يقتضي أن يكون الرَّدُّ بما تقتضيه الحكمةُ، وتستحسنه الفكرة.

دلالةُ التعبير بالفعل ﴿سَخِرُواْ﴾:

لا يوفِّر الظّالم المعتدي شيئًا من مظاهرِ السُّخرية وألفاظ الاستهزاء إلّا ذكره

ذكر المفسِّرون في معنى لفظ السُّخريَّة في الآيةِ معانيَ كثيرةً، تدلُّ على التَّحطيم المعنويِّ، وتكريس ملمح الصِّراع بين الحقِّ والباطل، ومعنى ﴿سَخِرُواْ﴾ العام: هو هزِئُوا منه، وأسمعوه ما يؤذيه من قوارص الكلم، وقالوا عنه ما حكاه القرآن عنهم في قوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُواْ عَبۡدَنَا وَقَالُواْ مَجۡنُونٞ وَٱزۡدُجِرَ ٩﴾ [القمر: 9][1]، وفي سخريتهم منه وجوهٌ أخرى مذكورةٌ عند المفسِّرين، يحتملها اللَّفظُ القرآنيُّ، ولا ينفر عنها السّياق، وهي وجوهٌ دالَّةٌ على سعة المعنى في اللَّفظِ القرآني، بما يدلُّ على حيويَّته وثرائه:

الأول: أنَّهم كانوا يقولون: يا نوح كنتَ تدَّعي رسالة الله تعالى، فَصِرْتَ بعد ذلك نجّارًا.

الثاني: أنَّهم كانوا يقولون له: لو كنت صادقًا في دعواك؛ لكان إلهك يُغنيك عن هذا العمل الشّاق.

الثالث: أنَّهم ما رأوا السَّفينة قبل ذلك، وما عرفوا كيفية الانتفاع بها، وكانوا يتعجَّبون منه، ويسخرون.

الرابع: أنَّ تلك السَّفينة كانت كبيرة، وهو كان يصنعها في موضع بعيدٍ عن الماء جدًّا، وكانوا يقولون: ليس هاهنا ماء، ولا يمكنك نقلها إلى الأنهار العظيمة وإلى البحار، فكانوا يعدّون ذلك من باب السَّفه والجنون.

الخامس: أنَّه لمّا طالت مُدَّته مع القوم، وكان ينذرهم بالغرق،

(1) عبد الكريم الخطيب، التَّفسير القرآني للقرآن: 6/1139.

وما شاهدوا من ذلك المعنى خبرًا ولا أثرًا؛ غلب على ظنونهم كونه كاذبًا في ذلك المقال، فلمّا اشتغل بعمل السَّفينة؛ لا جرم سخروا منه، وكلُّ هذه الوجوه مُحتمَلةٌ[1]، ففي التعبير بالفعل ﴿سَخِرُواْ﴾ إيجازٌ بليغ لشمول كلِّ هاتيك المعاني.

دلالةُ اختلافِ التَّعبيرِ في المقابلةِ:

التَّنبيه على الفرق بين السُّخريَّتين وتغاير المسلكين

في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ﴾ تغييرٌ في الأسلوب عن قوله تعالى: ﴿إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا﴾، وذلك بجعله جملةً اسميَّة مصدَّرة بالتَّأكيد للتَّنبيه على الفرق بين السُّخريتين في قوله تعالى: ﴿إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ﴾، أي: سخرية الملأِ وسخرية نوحٍ عليه السلام، وعلى تغاير المَسْلَكَيْن، والتَّنبيه بناءً على ظاهره لذمِّهم، وعلى كون سخريتهم أعرفَ عندهم[2]، وهذه عادةُ القرآنِ أن يُنبِّهَ على اختلاف المعاني بوساطةِ اختلافِ التَّعبير في الألفاظِ المتقابلةِ.

دلالةُ المسخورِ منه في الجملة الشرطية:

كثرةُ التّقديرات الدّلاليَّة مقصدٌ أداتُـه الإيجاز لدَرْك الإعجاز

اختُلف في تعيينِ المسخورِ منه في جملة الشَّرطِ وجوابِها في قوله تعالى: ﴿إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ﴾ على خمسةِ أقوالٍ، وهي:

الأوّل: إن تسخروا من قولنا؛ فإنّا نسخر من غفلتكم.

الثّاني: إن تسخروا من فعلنا عند بناء السَّفينة؛ فإنّا نسخر منكم عند الغرق[3].

الثّالث: إن تسخروا منّا في الدنيا؛ فإنّا نسخر منكم في الآخرة[4].

الرّابع: إن تستجهلونا؛ فإنّا نستجهلكم[5].

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 9/30، وابن الجوزي، زاد المسير: 2/372، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب، 17/345.

(2) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 10/76.

(3) العِزُّ بن عبد السَّلام، تفسير العزِّ بن عبد السَّلام: 1/283.

(4) ابن جرير، جامع البيان: 15/310.

(5) الخازن، تفسير الخازن: 2/483.

الخامس: إن تسخروا منّا؛ فإنّا نستنصر الله عليكم، فسمّى هذا سخرية؛ ليتّفق اللَّفظان كما في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ﴾ [البقرة: 15][1].

وتظهر بلاغةُ التَّقدير في عدم تعيين المسخورِ منه، وإطلاقِ الكلام، وتنزيلِ النَّفس في قوله تعالى: ﴿مِنَّا﴾ منزلةَ المسخورِ منه، فإنَّ مدارَ سُخرية الملأِ نوحٌ عليه السلام ومن معه، كما أنَّ مدارَ سُخريةِ نوحٍ عليه السلام هم الملأُ، فكان ذِكرُ المقصودِ بالسُّخريةِ وحذف القيود المتعلِّقة مرادًا لبيانِ كثرة أصناف السُّخرية التي يوجِّهها الملأُ لنوحٍ عليه السلام ومن معه، وهذا يدلُّ على طول زمانِ السُّخرية، ومرارة المعاناة، ولا يمنع أن تكون هناك تقديراتٌ أخرى سوى المذكور. وما جاء عليه النَّظم الكريم هو عمود البلاغة؛ إذِ الإطلاقُ مقصودٌ، وعدمُ التَّقييدِ مرادٌ.

دلالة التَّعبير بالمضارع ﴿تَسۡخَرُواْ﴾ و﴿نَسۡخَرُ﴾:

جاء التَّعبير بالفعل المضارع في قوله تعالى: ﴿إِن تَسۡخَرُواْ مِنَّا﴾، ولم يقل: (إن سخرتم منّا)؛ للدَّلالة على أنَّ السُّخرية قد صدرت عنهم في وقتِ قول نوحٍ عليه السلام: ﴿إِن تَسۡخَرُواْ مِنَّا﴾، أي: (إن تسخروا منّا الآن)، فدلَّ الفعل المضارع على استحضارِ فعل السُّخرية الصّادر عن الملأ؛ ليكون الجواب: ﴿فَإِنَّا نَسۡخَرُ مِنكُمۡ﴾ في المستقبل، أي: إن تسخروا منّا الآن، فتستمرّوا على سخريتكم، وتصرّوا عليها؛ فإنّا نسخرُ منكم في المستقبل بسببِ عنادِكم على سخريَّتكم التي هي كنايةٌ عن الكفر، فاستحضار سخرية الملأِ لغرضِ إقامة الدَّليل على استحقاقهم السُّخرية في المستقبل، وهي العقوبةُ في الدُّنيا غرقًا، وفي الآخرةِ عذابًا.

سخريةُ الملأِ كنايةٌ عن الكفر، وسخرية المؤمنين كنايةٌ عن عقوبة الدُّنيا وعذاب الآخرة

سرُّ اختلافِ مقابلةِ الجمعِ للمفردِ في ﴿مِنۡهُۚ﴾ و﴿مِنَّا﴾:

في قوله تعالى: ﴿سَخِرُواْ مِنۡهُۚ قَالَ إِن تَسۡخَرُواْ مِنَّا﴾ جاء التَّعبير

(1) ابن الجوزي، زاد المسير: 2/372.

السُّخريةُ من النَّبيِّ تستلزمُ السُّخريةَ من الأتباعِ

القرآنيُّ عن جواب نوح ﷺ بضمير الجمع (نا) دون أن يقول: (إن تسخروا مني)؛ وذلك: إمّا لأنَّ سُخريَّتهم منه ﷺ سخريَّةٌ من المؤمنين عن طريق دلالةِ اللُّزوم، فإنَّ من سخر من الدّاعي؛ فهو ساخرٌ بمن آمن به أيضًا، وإمّا لأنَّهم كانوا يسخرون من نوحٍ ﷺ والمؤمنين معًا، إلّا أنَّه اكتفى بذكر سخريَّتهم منه ﷺ في قوله تعالى: ﴿سَخِرُواْ مِنۡهُۚ﴾ باعتبارِه صاحب الرِّسالة، وهذا يدخل كذلك في دلالةِ اللُّزوم؛ ولذلك تعرَّض الجميع للمجازاة في قوله تعالى: ﴿نَسۡخَرُ مِنكُمۡ﴾، فتكافأ الكلام من الجانبين[1]، فاكتفى النَّظمُ القرآنيُّ بذكر ضمير الإفرادِ للتَّنبيه على أنَّه المقصودُ أصالةً، وهذا من كلام الله تعالى في ذكر الحدث، وجمع الضَّمير لمّا كان الكلام جاريًا على لسانِ نوحٍ ﷺ؛ لبيانِ أنَّه والمؤمنين يدٌ واحدةٌ، فكان إفرادُ الضَّمير في الإخبارِ عن الحدث، وجمعه في نقل كلام نوحٍ ﷺ بلاغةً عاليةً لا يُضاهيها كلامٌ آخر.

دلالة التَّعبير بالمضارع: ﴿نَسۡخَرُ﴾:

قَصْدُ المجازاة في الدُّنيا بالغرق وفي الآخـــرة بالحرق

ذكر النّظمُ القرآنيُّ ردَّ نوحٍ ﷺ على الملأِ بصيغة الفعل المضارع ﴿نَسۡخَرُ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّا نَسۡخَرُ مِنكُمۡ﴾، ولم يقل: (سنسخر منكم) أو (سوف نسخر منكم)، وذلك أن الفعل (نسخر) يحتمل الحال والاستقبال، وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّا نَسۡخَرُ مِنكُمۡ﴾ يحتمل أنَّهم يسخرون من الكافرين في الحال لعدم معرفتهم بما سيحيق بهم وهم لاهون عابثون ساخرون، وهؤلاء يستحقون أن يُسخر منهم في هذه الحال والمستقبل أيضًا، عندما يحلُّ عليهم العذاب، فيأخذهم الطوفان، فيغرقهم أجمعين، ويسخرون منهم في الآخرة، وهم في السَّعير[2].

(1) الآلوسي، روح المعاني: 6/248.
(2) السّامرائي، على طريق التَّفسير البياني: 3/150.

فقوله: ﴿فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ﴾ يستوفي حال نوحٍ والمؤمنين مع الكافرين، في حال سخريَّتهم، وعند الغرق، ويوم يُبعث النّاس لربِّ العالمين في القيامة، ولذا قيل: يكون ذلك في الدُّنيا عند الغرق، وفي الآخرة عند الحرق[1]، فهو استيعابٌ للحاضرِ والمستقبل القريبِ والبعيد، وهذا أدقُّ في تعيينِ المراد.

التعبير بالسخرية بين المشاكلة والمجاز:

سخريةُ الأنبياءِ من السّاخرين منهم مجازاةٌ عادلةٌ، وإصابةٌ ناجزةٌ

في قوله تعالى: ﴿نَسْخَرُ مِنكُمْ﴾ أثار بعض المفسِّرين سؤالًا، مفاده أنَّ السُّخريَّة من آثار المعاصي وإطلاقها على قوم نوحٍ حقيقةٌ، فكيف يليق صدورها من الأنبياء عليهم الصَّلاة والسَّلام؟ والجواب عن ذلك بأحد الأوجه الآتية:

الأوّل: أن تكونَ من قبيل المُشاكلة؛ لأنَّها لا تليق بالأنبياء ﷺ، فجيء بالألفاظِ المشاكلةِ للألفاظِ التي قالها القوم جزاءً وفاقًا.

الثّاني: أن يكون الكلام من قبيل المجاز المرسل بعلاقة السَّببيَّة؛ لأنَّ الاستجهال سببٌ للسُّخرية، فأُطلقت السُّخرية، وأريد سببها[2]، والمعنى: إن تستجهلوني؛ فإنّي أستجهلكم فيما أنتم عليه من الكفر والتَّعرُّض لسخط الله وعذابه، فأنتم أولى بالاستجهال منّا، أو إن تستجهلونا؛ فإنّا نستجهلكم في استجهالكم؛ لأنَّكم لا تستجهلون إلّا عن جهل بحقيقة الأمر. واستجهاله لهم باعتبار إظهاره لهم ومشافهتهم، وإلّا فهم عنده جُهّال قبل هذا وبعده[3]، وبناء على ظاهر الحال كما هو عادة الجهلة في البُعد عن الحقائق[4].

الثالث: أن تُحمل على المجازاةِ بالمقابلةِ، ويكون الاستعمالُ

(1) الآلوسي، روح المعاني: 6/248.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 6/248.
(3) القِنَّوجي، فتح البيان: 3/312.
(4) الزَّمخشري، الكشّاف: 2/393، والخازن، تفسير الخازن: 2/483.

حقيقيًّا، والمعنى: إن تسخروا منا فسترون عاقبة سخريتكم[1]؛ فالمقصود من هذه السُّخرية إصابة جزاء السُّخرية، وكلُّ أحدٍ إنَّما يُجازى من جنس عمله لا من خلاف جنسه، فالآية نظير قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ ٢٩﴾ [المطففين: 29]، وقال بعدها في الجزاء: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلۡكُفَّارِ يَضۡحَكُونَ ٣٤﴾ [المطففين: 34] ثُمَّ تمَّمَ بقوله تعالى: ﴿هَلۡ ثُوِّبَ ٱلۡكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ٣٦﴾ [المطففين: 36]؛ فسمّيتِ المقابلةُ سُخريَّة، كما في قوله تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ﴾ [الشّورى: 40][2].

فهي منه ﷻ على الحقيقة لمّا كانت لجزائهم من جنس صنيعهم؛ فلا تَقبحُ، ولا حاجة لارتكاب خلاف الظّاهر؛ فلا مانع من أن يُراد الظّاهر، ولا ضرر في ذلك؛ ومن هُنا قال بعضهم: إنَّ في الآية دليلًا على جواز مُقابلة الجاهل والأحمق بمثل فعله، ويشهد له قوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ﴾ [البقرة: 194]، وقوله تعالى: ﴿وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ﴾ [النّحل: 126] إلى غير ذلك[3]، أي: أنتم محلُّ السُّخرية والاستهزاء، لأنَّ من كان على أمرٍ باطلٍ؛ فهو أحقُّ بالاستهزاء و السُّخرية، وعليه فلا حاجة لكون الكلام من باب المشاكلة[4].

غرضُ التوكيد في: ﴿فَإِنَّا نَسۡخَرُ مِنكُمۡ﴾:

ثـقـةُ الـنَّـبـيِّ بـالـمـوعـود كـأنَّـه مُـشـاهـد قـبـل الـوجـود

ورد مؤكِّدان في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّا نَسۡخَرُ مِنكُمۡ﴾، هما: أداة التوكيد: (إنَّ)، واسميَّة الجملة؛ بقصد توكيد وقوع المعنى لا محالة؛ لأنَّه وعد الله للمتَّقين، بأن ينتهي بهم الحال بالتَّمكين؛ فنظر نوح

(1) البغوي، معالم التّنزيل: 4/175.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/345.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 6/248.
(4) الصّاوي، حاشية الصّاوي على الجلالين: 2/135.

ﷺ إلى الموعود بطرف التَّصديق، فكان كالمُشاهد له قبل الوجود[1]، وتأكيدُ السُّخرية هو كنايةٌ عن وقوعِ العذاب.

معنى الكافِ في ﴿كَمَا﴾:

تعليلُ الأعمالِ للمخالفِ أدعَى لقبولِها وأبيَنُ في حضورِها

يجوز في (الكاف) في قوله تعالى: ﴿كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ احتمالاتٌ عدَّة:

الأول: أن تكون اسمًا بمعنى (مثل)، مبنيًّا على الفتح في محلِّ نصب صفة.

الثّاني: أن تكون نائبًا عن المفعول المطلق المحذوف، بتقدير: (نسخر منكم سخريَّة مثل سخريتكم).

الثالث: أن تكون تعليليَّة كالتي في قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ﴾ [البقرة: 198]، والمعنى: فإنّا نسخر منكم؛ لأنَّكم تسخرون منا، فيُفيد التَّفاوتَ بين السُّخريَّتَيْن؛ لأنَّ السُّخرية المعلَّلة أحقُّ من الأخرى، فالكفار سَخروا من نوحٍ ﷺ لعملٍ يجهلون غايته، ونوح ﷺ وأتباعه سخروا من الكفار لِعلمهم بأنَّهم جاهلون في غرور، كما دَّل عليه قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ بعد ذلك؛ وبذلك يتَّضح وجه التَّشبيه في قوله تعالى: ﴿كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ فهو تشبيه في السَّبَبِ الباعث على السُّخرية، وإن كان بين السَّببين بونٌ[2]، فالمعنى: إنّا نسخر منكم سخرية متحقِّقة واقعة، كما تسخرون منّا كذلك، أو متجدِّدة متكرِّرة، كما تسخرون منّا كذلك، وهذا التَّشبيه واقع إمّا في مجرَّد التَّحقُّق والوقوع، وإمّا في التَّجدُّد والتَّكرُّر حسبما صدر عن ملأ بعد ملأ[3].

(1) القشيري، لطائف الإشارات: 2/136.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/68.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 6/248.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

(يصنعون) و(يعملون) و(يفعلون):

الصُّنْعُ أخَصُّ المعاني الثَّلاثَةِ وأرْسَخُها، والفعل أعَمُّها، والعَمَلُ أوْسَطُها

الفِعْلُ لَفْظٌ عامٌّ يَدُلُّ عَلَى إحْداثِ شَيْءٍ منْ عَمَلٍ وغَيْرِهِ[1]، فَهو مُطْلَقُ التَّأثيرِ من جهة مُؤَثِّرٍ[2] سواء كان عن سبب أم لا، ويُقال لِما كان بإجادة وبدونها، ولِما كان بِعِلْمٍ أو غَيْرِ عِلْمٍ، وقَصْدٍ أو غَيْرِ قَصْدٍ[3].

وأمّا العمل؛ فهو عبارة عن إيجاد الأثر في الشَّيءِ مع امتداد زمان، ولا يُقالُ إلّا لما كان بقصد وعِلْمٍ دون ما لم يكن عن قصد وعلم، قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [البقرة: 25]، فعبَّر عن ذلك بالعمل؛ لأنَّه لا يكون إلّا بِقَصْدٍ وامتداد زمان.

وأمّا الصُّنْعُ؛ فَهو: تَرْتيبُ العَمَلِ وإحْكامُهُ على ما تَقَدَّمَ عِلْمٌ به، وبما يوصِلُ إلى المُراد منه، ولذا قيل لِلْعِلْم المُتَعَلِّقِ بكيفيَّةِ العملِ: صناعةٌ[4]، ويَدُلُّ على رسوخ العَمَلِ وإجادَتِه، فَيُقالُ للنَّجار: صانِعٌ؛ لأنَّ النَّجار قد سَبَقَ عِلْمُهُ بما يُريدُ عَمَلَهُ، وعَلِمَ بالأسبابِ التي توصِلُ إلى المُراد من ذلك والصُّنْع.

فالصُّنْعُ أخَصُّ المَعاني الثَّلاثَة، والفعل أعَمُّها، والعَمَلُ أوْسَطُها؛ فكلُّ صُنْعٍ عَمَلٌ، وليس كُلُّ عَمَلٍ صُنْعًا، وكلُّ عملٍ فِعْلٌ، وليس كُلُّ فِعْلٍ عَمَلًا[5].

السُّخرية والاستهزاء:

الفرق بينهما من وجهين: لفظيٍّ ومعنويٍّ

فأمّا اللَّفظيُّ؛ فالغالبُ في فِعْلِ الاسْتِهْزاءِ أنْ يتعدَّى بـ (الباء)، والغالب في فعل السُّخريَّة أن يتعدّى بحرف (من)، وتعديةُ كلِّ واحدٍ بالحرف المذكورِ مُطَّردٌ في القرآنِ الكريم لا يتخَلَّفُ، ولكنْ ورَدَ منْ غير الغالبِ في كلام العربِ[6].

(1) ابن فارِس، مقاييس اللّغة: (فعل).
(2) الرّاغب، المفردات: (فعل).
(3) المناويّ، التّوقيف على مهمّاتِ التّعاريفِ، ص: 262.
(4) الجرجانيّ، التّعريفات، ص: 134.
(5) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 134.
(6) الزبيدي، تاج العروس: 11/521.

وأمّا المعنويُّ؛ فَيَظْهَرُ بملاحظَةِ أصْلِ المادَّةِ؛ فالسُّخريَّةُ مَلْحوظٌ فيها مَعْنى التَّسْخيرِ والطّاعة؛ والمسخِّرُ غيرَه يَراه دونَهُ، فيتَّصِفُ بالكِبْرِ والطُّغيان[1]، فالسّاخِرُ مُتكبِّرٌ في تعامُلِهِ مع المَسْخورِ منْهُ، كما في قوله تعالى: ﴿وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُواْ مِنْهُ﴾[2].

أمّا الاسْتِهْزاءُ؛ فَمَلْحوظٌ فيه معنى الخِفَّة والحركة اللّاهيَة، وهو ما يورِّثُ لَدَى المستهزئِ معنى الاستخفافِ والاسْتِصْغارِ بالمهزوءِ بِهِ، وعليه فمعنى الكِبْرِ والطُّغيان أوْضَحُ في كلمة السُّخريَّة، ومعنى الاستخفافِ والاحتقارِ أوْضَحُ في كلمةِ الاسْتِهْزاء، وهما يشتَرِكان في أصل المعنَى، فإذا اجتَمعا؛ افترقا، وإذا افترقا؛ اجْتَمَعا.

وهنالك أمران يُذكران في الاستعمال القرآنيِّ لهذين اللَّفظين: أوَّلهما: أنَّ الاستهزاء عامٌّ سواء تعلَّق بالأشخاص أم بغير الأشخاص، قال تعالى: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا﴾ [المائدة: 58] فالصَّلاة ليست شخصًا، وإنَّما أقوالٌ وأفعالٌ، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا﴾ [الجاثية: 9]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا﴾ [البقرة: 231]، فالاستهزاء عامٌّ في الأشخاص وفي غير الأشخاص، أمّا السُّخرية؛ فتكون من الأشخاص تحديدًا، قال تعالى: ﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُواْ مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾؛ فالاستهزاء أعمُّ من السُّخرية.

والأمر الثّاني: أنَّ الإنسان يُستهزَأُ به من غير أن يسبقَ منه فعلٌ يُستهزَأ به من أجله، والسُّخرية تدلُّ على فعلٍ يسبقُ من المسخور منه، وذلك أنَّك تقول: استهزَأْتُ به، فتعدّي الفعل منك بالباء، والباء للإلصاق، كأنَّك ألصقت به استهزاءً من غير أن يدلَّ على شيء وقع الاستهزاء من أجله، وتقول: سخرتُ منه، فيقتضي ذلك من وقع السُّخر من أجله، كما تقول: تعجَّبت منه، فيدلُّ ذلك على فعلٍ وقع التعجُّب من أجله[3].

فالسُّخرية تتعلَّق بالأفعال، أمّا الاستهزاء؛ فلا يتعلَّق بالفعل؛ فقوم نوحٍ مثلًا سخروا منه، وهو يصنع الفلك، وهذا عملٌ، وهم سخروا من فعلٍ يفعله، ومثله قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ﴾ [التّوبة: 79] هذا فعل.

(1) القاضي عياض، مشارق الأنوار: 2/209، والصُّحاري، الإبانة في اللُّغة العربيَّة: 3/224.
(2) العسكريّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 50، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/147.
(3) المصطفوي، التَّحقيق في كلمات القرآن: 5/76.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد العشرون، سورة يونس من الآية 76 إلى سورة هود الآية 40
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد العشرون، سورة يونس من الآية 76 إلى سورة هود الآية 40 [إشراف
مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 20 ، 812 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-17-3
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 20 : المجلد العشرون، سورة يونس من الآية 76 إلى سورة هود الآية 40.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-17-3
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-6073958 بتاريخ 2024/02/06م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»